خطبة صلاة الجمعة 29/ 11/ 2024 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال، في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(الاعتصام بالله تعالى وبكتابه)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: 174-175].

وقال سبحانه: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: 78].

عنوان خطبة اليوم: **الاعتصام بالله تعالى وبكتابه**

أيها الإخوة:

في زحمة الحياة وشدائدها، وفي لجة الأهواء والشهوات ومزالقها، وفي شدة الفتن والأهوال ومواجعها؛ يبحث المرء عن ملاذ ومعاذ، ويفتش عن منجى وملجأ، ومنه هنا أردت الحديث عن الاعتصام بالله تعالى وبكتابه، وعن التمسك بالضراعة إليه، وبمتابعة رسوله صلى الله عليه وسلم، إذ لا يعصم المؤمنَ إلا اللهُ وكتابه، ولا يهديه إلا القرآنُ والسنة.

الاعتصام: افتعال، من العصمة؛ وهو التمسك بما يعصمك، ويمنعك من المحذور والمخوف، ومنه سميت القلاع: العواصم؛ لمنعها وحمايتها.

والاعتصام نوعان: اعتصام بالله، واعتصام بحبل الله.

أما الاعتصام بالله: فهو أن تجعله ملجأ ومعاذاً، وأن تثق به وتتمسك بدينه وتوحيده، وألا تلتفت إلى غيره.

أخرج البخاري عن البراء بن عازب: قال النّبيّ صلى الله عليه وسلم: «**إذا أتيت مضجعك فتوضّأ وضوءك للصّلاة، ثمّ اضطجع على شقّك الأيمن، ثمّ قل: اللّهمّ إنّي أسلمت وجهي إليك، وفوّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، اللّهمّ آمنت بكتابك الّذي أنزلت، وبنبيّك الّذي أرسلت، فإن متّ من ليلتك، فأنت على الفطرة، واجعلهنّ آخر ما تتكلّم به**»، قال: فردّدتها على النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فلمّا بلغتُ "آمنت بكتابك الّذي أنزلت"، قلت: "ورسولك"، قال: «**لا، ونبيّك الّذي أرسلت**».

فقوله صلى الله عليه وسلم: "لا منجا ولا ملجا إلا إليك" هو اعتصام بالله وحده، والتفات عن غيره إليه وفرار منه إليه.

قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 146].

فالمؤمن في عسره ويسره، وفي بلائه ونعمائه، يعتصم بربه ويحط رحاله على بابه، إذْ لا عاصم من أمر الله إلا من رحم، والمعصوم من عصمه الله والمحفوظ من حفظه.

ومِن هنا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكثر الاستعاذةَ بالله، والاستعاذة: اعتصام بالله واحتماء به، ليجيره ربه من المخاوف والمهالك.

فيستعيذ النبي صلى الله عليه وسلم بالله من الفتن، ومن الفقر، ومن الجوع، ومن الهم والحزن، ومن العجز والكسل، ومن غلبة الدين وقهر الرجال، ويستعيذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل، ويستعيذ بالله من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ويستعيذ بالله من الهدم والغرق والتردي.

وهكذا تكثر الاستعاذة بالله في مقال النبي صلى الله عليه وسلم وحاله؛ ليُعَلِّم المؤمنَ حاجته إلى الاعتصام بالله، إذ مدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: 101].

هذا عن الاعتصام بالله، **أما الاعتصام بحبل الله**: فهو تمسكٌ بالقرآن الكريم بأن تتعلمَه وتفهمَ معانيه، وتأتمرَ بأمره وتنتهي عن نواهيه، وتعلمَه وتنشرَ معانيه.

أخرج الطبراني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إنّ هذا القرآن سبب طرفه بيد الله تعالى، وطرفه بأيديكم فتمسّكوا به، فإنّكم لن تضلّوا ولن تهلكوا بعده أبدا**».

قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103].

عن علي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ألا إنّها ستكون فتنة»، فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله» [الترمذي والبيهقي].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تركت فيكم أمرين، لن تضلّوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله، وسنّة نبيّه» [مالك].

وإليكم هاتين الصورتين من آلاف الصور في التمسك بكتاب الله تعالى:

ذكر الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 41].

قال: روى حماد عن ثابت وعلي بن زيد عن أنس أن أبا طلحة قرأ سورة [براءة] فأتى على هذه الآية ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا . . .﴾ فقال: أي بني جهزوني جهزوني، فقال بنوه: يرحمك الله! لقد غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك. قال: لا، جهزوني. فغزا في البحر فمات في البحر، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام، فدفنوه فيها، ولم يتغير رضي الله عنه.

وقال الزهري: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه. فقيل له: إنك عليل. فقال: استنفر اللهُ الخفيفَ والثقيلَ، فإن لم يمكنني الحرب كثّرتُ السوادَ وحفظت المتاع.

إنه الاعتصام والتمسك بكلام الله.

وأخرج الترمذي عن معقل بن يسار، أنّه زوّج أخته رجلاً من المسلمين على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فكانت عنده ما كانت، ثمّ طلّقها تطليقة لم يراجعها حتّى انقضت العدّة، فهويها وهويته، ثمّ خطبها مع الخطّاب، فقال له: يا لكع! أكرمتك بها وزوّجتكها فطلّقتها، والله لا ترجع إليك أبداً آخر ما عليك، قال: فعلم الله حاجته إليها، وحاجتها إلى بعلها، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 232].

فلمّا سمعها معقل قال: سمعا لربّي وطاعة، ثمّ دعاه فقال: أزوّجك وأكرمك.

إنه الاعتصام والتمسك بكلام الله!

فاجعل -أخي- القرآنَ الكريم صاحبك تغدو إليه وتروح، تسأله وتتعلم منه، تعيش معه وله وبه، إن أمرك ائتمرت، وإن نهاك انتهيت، فإن قصرت معه مرة فعد إليه أخرى، وإن تأخرت عنه اليوم فباكر إليه الغد؛ لتكون ممن يعتصم بحبل الله ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 103].

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إنّ هذا الصّراط محتضر، تحضره الشّياطين، ينادون: يا عبد الله! هلمّ هذا هو الطّريق، ليصدّوا عن سبيل الله، فاعتصموا بحبل الله، فإنّ حبل الله القرآن».

أيها الإخوة:

اعلموا أنّ اعتصامكم بالسنة اعتصامٌ بالقرآن، إذ قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: 132] ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: 7].

ومن أجل هذا صلى الصحابة قياماً عندما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً وصلوا جلوساً عندما صلى جالساً، وخلعوا نعالهم عندما خلع نعليه، وحلقوا شعورهم لما حلق شعره؛ لأنهم كانوا يرون اعتصامهم بسنته اعتصاماً بحبل الله، فلا نجاة لهم إلا باتباعه صلى الله عليه وسلم.

قال الزهري: الاعتصام بالسنة نجاة؛ لأن السنة كما قال مالك: مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها هلك.

أيها الإخوة:

الحاصل أنّ مدار السلامة والسعادة الدّنيويّة والأخرويّة: على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلّا لمن تمسّك بهاتين العصمتين.

فأمّا الاعتصام بحبله: فإنّه يعصم من الضّلالة، وأما الاعتصام به: فيعصم من الهلكة.

﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: 101].

والحمد لله رب العالمين